# ثمن السكوت (!)

أ.د. محسن محمد حسين*

## إستهلال:

يبدو ان مؤسس أية عقيدة، ولاسيما العقائد الدينية، ما أن يغادر الحياة، الا وينشطر أتباعه الى فرق وجماعات وشيع، ولاسيما انا كانت العقيدة تحاول أن تجمع بين الشؤون الروحية والمادية (الدينية والدنيوية)، لأن كل جماعة ترى مصلحتها في نصوص معينة. ولم تكن العقيدة الاسلامية استثناء، فما أن رحل النبي محمد (صلعم) عن الدنيا، الا وتباعد الصحابة، وانقسموا الى فرق. وقد أدرك النبي طبيعة أهله وأتباعه، واستشرف بما سيحصل بينهم فيمابعد في حياته.

## الموضوع:

ينسب الى الرسول (صلعم) قوله: "افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة، فواحدة منها في الجنة وسبعون في النار. وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فاحدى وسبعين في النار وواحدة في الجنة. والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار. والفرقة الوحيدة التي ستدخل الجنة هي الفرقة الناجية." حديث رواه ابن ماجة محمد وأصحاب السنن الآخرون، عن مالك بن أنس وعن ابي هريرة، رقم الحديث ١٠٨٣. وان الجماعات الاسلامية قد انقسمت الى اكثر من ذلك العدد (ثلاث وسبعين فرقة وحدث الخلاف بين الخلفاء. وكان الخلاف الأول على من سيخلف النبي (صلعم)، فكان اختيار عمر ابن الخطاب (رض) موفقا حين قرر أن توضع مسؤولية قيادة المسلمين على عاتق صاحب الرسول في الهجرة، وقد آواهما الغار، "اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا" (سورة التوبة، الآية رقم ٤٠)، اختار أبابكرا (رض) وهو أول رجل ناضج غادر صفوف عباد الاصنام والاوثان، وانخرط في صفوف الدعوة.

في عهد خلافة هذا الرجل -وقد غدا شيخا- حدثت الحركة الخطيرة الاولى المضادة للوضع الجديد، او مايسمى "حركة الردة"، واستطاع الرجل اخمادها. ثم قتل الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب. وتم الاقتصاص من القاتل، ثم حدثت "الفتنة الكبرى" التي كان ضحيتها الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) اذ قتل بايد اسلامية وضمت صفوف القتلة أولاد بعض الصحابة، في مقدمتهم محمد ابن الخليفه الاول ابي بكر الصديق، ثم حدثت الحروب الأهلية بين الخليفة الرابع علي بن ابي طالب (رض) وبين خصومه ومنافسيه على السلطة، في وقت ظهر في ميدان الحكم ثلاث جماعات تعلن أحقيتها في "خلافة المسلمين"، هى جماعة الخليفة الشرعي 'علي' وأولاد الزبير، وأسرة ابي سفيان بن حرب ممثلة في معاوية الذي نجح في النهاية في اضفاء الشرعية على حكمه، فيما سمى بعام الجماعة، حين أعلن قيام دولة بني أمية فيها اثر اغتيال الخليفة علي بأيدي الخوارج وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية -حسبما تذكره بعض المصادر- ودخل معاوية الكوفة (مركز العلويين في العراق) دخولا سلميا عام ٤١هـ، وغادرها الحسن ومن وما معه الى المدينة، وانتهى الصراع وان كان مؤقتا - بين الجماعات الاسلامية المسلحة، في وقت كانت الفتوحات الاسلامية قد بلغت ذروتها، ودان قطوف ثمارها، وقد قطفوها فعلا، الا أن تجاوزات غير قليلة حصلت وتم تبريرها وتمريرها خلال تلك الفتوحات وتعذر على الفاتحين تنفيذ توجيهات الخليفة الأول التي قدمها الى الفاتحين الذين صاروا يعاملون أهل البلاد المفتوحة معاملة لاتليق بالقيم التي أعلنوها، ولاسيما وان أهل تلك البلاد كانوا يجهلون لغة الفاتحين، سواء في بلاد فارس وكردستان وأرمينيا، أو في شمالي أفريقيا، ولايفهمون مايرمون اليه.

يتساءل خليل عبدالكريم في فصل "المستوى الحضاري – الادراكي" من كتابه (الصحابة والمجتمع. دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٨، السفر الثالث، ص٢٨٤) قائلا: ماهو الفرق بين غزو المسلمين وبين أي غزو آخر؟ لقد قدر للغزاة في اي مكان او زمان تسويغ غزوهم؛ مرة لنشر ثقافتهم، او افشاء لغتهم القومية، او لإناعة دينهم، او لتحضير الشعوب المغلوبة، وهكذا! وفي رأينا ان الاسلام لايتحمل جريرة الغزو الإستيطاني لأوطان الآخرين، الناهب السالب المستعبد (بكسر الباء) للرجال والنساء الذي قام به الصحابة، حتى ولو كان من أمثال ابي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن مالك ابن ابي وقاص، وخالد بن الوليد الخ.. اذ ليس فيه نص واحد (قرآن او سنة) يبيح لهم وطء بلاد الآخرين، وفعل الأفاعيل التي أرتكبوها فيها وفي أهلها، والتي أشعر كمسلم يتمسك بدينه معتز به بالخجل والخزي ازاءها، ويكاد يصيبني الذهول،

* عضو الأكاديمية الكردية- رئيس لجنة التاريخ. أربيل- كردستان العراق.

وأنا أقرأ أو أسمع من يدافع عنه، بل يمجده ويعتبره من النقاط المضيئة في تاريخ الاسلام، كما يقول خليل عبدالكريم.

تصور حال هؤلاء الغزاة الذين وطئوا أرض الحضارات السوابق. عندما يسأل القائد رستم رسول القائد سعد بن أبي وقاص، متعجبا من سلوكياته الفظة والدوافع التي حملته عيلها؟ يعجب هذا الرسول ويجيب: انا لانحب القعود على زينتكم هذه. يقول خليل عبدالكريم: ولو صدق رسول القائد سعد لقال: لأننا حرمنا من زينتكم هذه، فنشعر نحوها بحقد دفين. أما أنهم لايستحبون القعود على مثل تلك الزينة، فلقد أثبت التاريخ الموثق أنهم عندما تحضروا -أي العرب المسلمون- وتمدنوا وغدوا حكاما، وجرت الأموال في أيديهم، تولهوا لهذه الزينة، وتدلهوا عشقها، وبالغوا في حبها، وأسرفوا فيها الى درجة السفه والخرق (الخرق: الحمق والجهل بالشئ). ولما سأله رستم عن الباعث على خروجهم من بلادهم القاحلة، أجابه (رسول سعد) بكل جرأة على الحق: "لنخرج من شاء عبادة العباد الى عبادة الله. ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام." وهى الاسطورة التي مازال يرددها الباحثون والدارسون حتى في أورقة الجامعات وفي الاطروحات الاكاديمية، دعك من خطباء المساجد وكتبة الصحف السيارة (ص: ٢٦).

لقد جاء هؤلاء على حين غرة، لم يستدعهم أحد، فوقف أهل البلاد بوجه الفاتحين الغرباء بكل قوتهم، فحصلت معارك شرسة عديدة بين الفريقين، أشهرها معارك القادسية في العراق بين الجيش الساساني الفارسي وبين جيش العرب المسلمين، كان النصر فيها حليف الطرف الأخير، بعد وقوع ضحايا، وبعد تضحيات جسام بينهما، يقول أحد الباحثين: لقد كان الفاتحون مجهولين، ثم ظهروا فجأة، وصاروا ينسابون بين حضارتي الفرس والروم البيزنطيين. ان هؤلاء البدو الاميين، هؤلاء الرحل المنعزلين، سرعان ما تعلموا وتثقفوا.. ثم نشروا ثقافتهم - التي تكونت تدريجيا في فتوحات امتدت بين بلاد الصين وبين جبال البرانس في أسبانيا (هنري لوسيل مقدم كتاب اضواء عربية على اوروبا في القرون الوسطى، ترجمة عادل العوا ومنشورات عويدات، بيروت، باريس ١٩٨٣)

لقد وجد هؤلاء أنفسهم في ظرف جديد اكثر تعقيدا مما الفوه في بداوتهم البسيطة الاولى، بين شعوب عريقة بحضاراتها ولغاتها وأنظمتها الادارية والاجتماعية، لها تاريخها الممتد في دول مركزية منذ فجر التاريخ. وهنا واجه الفاتحون اولى المشاكل الكبرى، فهم لا يحملون معهم من فيافي جزيرتهم من ثقافة سوى القرآن الكريم وبعض الأشعار والمعرفة بأنسابهم، وهو زاد غير كاف ازاء متغيرات شتى تختلف عن بيئة البداوة في البلاد المفتوحة بكل جديدها المتعدد، خاصة وان القرآن الكريم يحمل مجموعه تنظيمات وأحكام عامة دون تفاصيل، كما يقول د. سيد محمود القمني (الفاشيون والوطن، المركز المصرى لبحوث الحضارة، سنه ١٩٩٩، ص٤٤).

شيئا فشيئا يستقر العرب المسلمون في تلك الديار، يمتلكون الأراضي، يشيدون فيها الدور، الا أن نظرتهم الى أهل تلك البلدان اختلفت عن نظرة الاسلام الى غير العرب، ولم يجدوا ضرورة في تطبيق الآيه الكريمة التي تقول: "انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم - سورة الحجرات: ١٣) ومطلب التعارف هنا بين الشعوب والقبائل لم يعجب الفاتح، فكانت النظرة الدونية الى غيرهم، اي الى أهل البلاد. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد. وهذه النظرة غير اللائقة بالانسان وبالاسلام المبكر معا، كانت السبب في ظهور مصطلح "الموالي" المؤذي.

وعلى الرغم من ان هذا اللفظ قد تعرض للتغيير، وأعطى مدلولات عديدة، دينية ودنيوية، الا أن أوضح معنى له هو "الانسان المسلم غير العربي". والواقع ان هذا الوصف قد ظهر في عهد النبي (صلعم)، وأطلق كلمته المعبرة عن واقع الاقرار بوجود ظاهرة "الموالي" حين قال "الولاء لمن أعتق." الا ان الفاتحين باتوا ينظرون الى هؤلاء الموالي نظرة فيها كثير من حالات اللامساواة والعنت والتجنى، وكأنهم صاروا يملكون رقابهم.

أما هم، اي أهل البلاد المفتوحة، فلم يركنوا الى الهدوء، بل بدأت مقاومتهم بعد صبر قليل، ليس ضد الدين الجديد الذي اعتنقه اكثرهم، بعد أن اقتنعوا به تدريجيا، بل ضد المفهوم الضيق للاسلام وللفتوحات. وصار الفاتحون -بعد أن استقروا في البلاد المفتوحة في أوطان الآخرين، يبحثون عن مسوغات تجعلهم أسيادا، وليس معلمين او موجهين لتعاليم الدين الجديد. فنظرة العرب الاستعلائية لم تكن مستوحاة من هذا الدين، بل مستوحاة من مصالحهم ومواقعهم بوصفهم غزاة او سادة، فلا يعقل -في نظرهم- أن يساووا -وهم المنتصرون- مع المغلوبين واستطاعوا ان يفسروا بعض الآيات، ويضعوا أحاديث تبرر موقفهم.

"أهل الذمة"

وهم أبناء البلاد المفتوحة من نصارى ويهود وصابئة ومجوس.. الخ، الذين تمسكوا بدياناتهم، ولم يقبلوا الدخول في دين المسلمين، أي أنهم صاروا في حماية وذمة المسلمين لقاء ما يدفعونه من ضرائب، الجزية أبرز تلك الضرائب، وكانوا يسلمونها -حسب النص القرآني- من ذل: "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون." أي أنهم يدفعونها وهم خاضعون. وتم التعامل معهم بصنوف التحقير، ولاسيما في فترة الحكم الأموي، فيروي ابو يوسف ان الخليفة الاموي الورع عمر بن عبدالعزيز كتب الى أحد عماله: أما بعد، فلا تدعن صليبا ظاهرا الا كسر ومحق، ولا يركبن يهودي او نصراني على سرج وليركب على أكاف (برذعة) وتم تمييز مايلبسونه عما يلبسه المسلم. ولم يعارض الفقهاء هذه الاجراءات، بل أفتوا بصوابها. فقال ابو حنيفة النعمان، وهو نفسه من الموالي: "ينبغي أن لايترك أحد من أهل الذمة يتشبه في لباسه ولا في ركوبه ولا في هيئته بالمسلمين." (كتاب الخراج، ط١٣٤٦هـ، المطبعة السلفية القاهرة، ص١٥١-١٥٢). وقد لخص الماوردي (ت٤٥٠هـ) الشروط التي يستحسن على الذميين أن يتميزوا بها: أولا أن يرتدوا ملابس تميزهم. ثانيا: الا ترتفع مبانيهم على مباني المسلمين(!). (ثالثا): ألا يسمعوهم قرع نواقيسهم او تلاوة كتبهم وتراتيلهم، ولاقولهم في عزير والمسيح. (رابعا): الا يجاهروا بشرب الخمور، ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم. (خامسا): ان يخفوا دفن موتاهم ولايجهروا بالندب عليهم ولانياحه(!). (سادسا): ان يمنعوا من ركوب الخيل، ويكتفوا بركوب البغال والحمير (الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بغداد - دار الحرية، ١٩٨٩، ص٢٢٩). بل ان فون كريمر يرى ان السكان الأصليين من غير المسلمين لم تكن لهم حقوق الى حد بعيد (الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، تعريب مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٤٧، ص٦٩).

اما تريتون، فيقول ان أهل الذمة كانوا يدفعون -في بداية الفتوحات- ضرائب مناسبة حدد مقدارها وأخذت تزداد شيئا فشيئا، وصارت تثقل وطأتها كاهلهم على مر الأيام (كتابه أهل الذمة في الاسلام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٤٩، ص٢٥٤-٢٥٥)، ولاسيما في عهد عبدالملك بن مروان، ولم تتحسن أوضاعهم في العصر العباسي، فزادت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية عليهم. وأتبع الخلفاء سياسة متعسفة معهم، ولاسيما في عهد المتوكل.

بدأت مقاومة السادة العرب تظهر بأشكال وبأساليب متنوعة، فبدأ الموالي خاصة يطالبون بحق المساواة استنادا على آيات وأحاديث، ثم كانت مقاومتهم المسلحة سواء بمشاركتهم في حركات التمرد والانتفاضات، او بقيامهم هم بتلك الحركات بأنفسهم أو بمحاوله الاطاحة بالسلطة العنصرية المتمثلة بحكم بني أمية. وقد نجحوا في ذلك، حين جعلوا أرض بلادهم النائية مثابة لإنطلاقة الدعوة العباسية، ثم مساهمتهم الفعالة في اعلان قيام الدولة العباسية، التي صبغوها بصبغتهم في فترة ازدهارها، وحين بدأ الخلفاء باضعافهم، أضعفوا بذلك دولتهم التي شيدتها أدمغة وأذرع الفرس بالدرجة الأساس، سواء بالدور الذي اضطلع به أبو مسلم الخراساني، او بوزير آل محمد (أبو سلمة الخلال) ودور البرامكة البناء والخطير، والوزير ذو الرئاستين.. الخ، حتى صار الفرس هم وزراء الدولة وعلماءها ومفسري القرآن وجامعي الحديث، وكتاب التاريخ والجغرافيا، والفلسفة وعلماء اللغة وكبار شعراء العربية، فدورهم الثقافي البارز كان معروفا حتى صار جل العلماء من الأعاجم، على حد تعبير العلامة ابن خلدون الحضرمي التونسي (كتابه: المقدمة) يقول: تحت عنوان "في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم" مايلي:

"من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، الا في القليل النادر.. والسبب في ذلك ان الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة، لمقتضى (بسبب) أحوال السذاجة والبداوة، وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها (يحفظونها) في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتدوين والتأليف، ولا دفعوا اليه، ولا دعتهم اليه حاجة." (ط دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩، ص٤٧-١٠٤٨). ثم يقول ابن خلدون بعد اسطر: "ان الصنائع من منتحل (نتاج) الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية، وتبعد العرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم، او من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر، الذين هم

تبع للعجم في الحضارة وأحوالهم من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس، فكان صاحب صناعة النحو 'سيبويه' و 'الفارسي' من بعده، و'الزجاج' من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم، وانهم ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم. وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الاسلام، اكثرهم عجم، أو مستعجبون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق (العراق وكان سكانه من الموالي يومئذ)."

ويضيف ابن خلدون: وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما هو معروف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الأعاجم. وظهر مصداق قوله (صلعم) "لو تعلق العلم بأكناف (أجنحة) السماء، لناله قوم من أهل فارس" (المقدمة، ص١٠٥٠). اما العلوم العقلية أيضا، فلم تظهر في الملة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه. واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم وتركها (أهملها) العرب، وانصرفوا عن انتحالها، فلم يحملها الا المعربون من العجم، شأن الصنائع، كما قلنا. فلم يزل ذلك في الأمصار الاسلامية مادامت الحضارة في العجم، وببلادهم من العراق وخراسان وماوراء النهر (ص١٠٥١).

في مرحلة تالية، أو مصاحبة لتلك الأدوار، أقام العجم دولهم، أو اماراتهم في البداية، على أرضهم في ايران (هامش: لفظ "ايران" مستقاة من "آريان" ويأتي بمعنى الطهرة، او النجباء، د. طه يدا، فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية. ط، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦، ص١٠). وايران في تاريخها العميق تعرضت، كغيرها من الأوطان، لكثير من الغزوات، وكانت تخرج من تلك المحن مرفوعة الهامة، وتتحول هي بدورها الى دولة غازية، تفتح لّوطان الآخرين، فغزت بلاد الاغريق ومصر واليمن وبلاد الهند .. الخ.

وبالنسبة للفتوحات العربية الاسلامية، فان الفرس لم يستدعوا المسلمين الى بلادهم، بل وقفوا بوجوههم، وخاضوا ضدها معارك شرسة، أبرزها معركة القادسية الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون على الفرس في أراضي العراق. وكان الفاتحون يعرضون على أولي أمر وسكان البلاد التي تصل اليها قواتهم، شروطهم قبل المناجزة، فعلى هؤلاء أن يختاروا الدخول الى الاسلام او دفع الجزية او القتال. فيذكر المؤرخ الكبير الطبري: ان العرب لما بلغوا المدائن (وكانت عاصمة الساسانيين في اقليم العراق يومئذ وفيها قصر أو ايوان كسرى)، فوصلوا الى القصر الأبيض، وقد تحصن فيه المدافعون، فدعوهم الى الاسلام، "فان أسلمتم، فلكم مالنا وعليكم ماعلينا(!) وان أبيتم، فالجزيه، وان أبيتم، فمناجزتكم، نقاتلنكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فأجابهم مجيبهم: لاحاجة لنا في الاسلام ولا في القتال، ولكن ندفع الجزية، ثم طفق العرب يفتحون البلدة تلو الأخرى. وظلوا يعقبون 'يزدگرد'، آخر ملوكهم الذي واصل مقاومة المسلمين حتى آخر نفس، حتى قتل في سنة ٣١هـ/٦٥١ في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان، بعد أن ملك عشرين سنة، قضى منها ست عشرة سنة في محاربة العرب، حسب رواية هذا المؤرخ الفارسي الأصل الذي أضاف الى قوله، ان يزدگرد لم ينعم بحكمه سوى مدة أربع سنين قضاها في دعة، وست عشرة في تعب من محاربة العرب اياه، وغلظتهم عليه (تاريخ الرسل والملوك ٤٨/٩ أحداث السنة المذكورة. بينما اعتبر الفردوسي في ملحمته المعروفة 'الشاهنامه' مدة حكمه كلها ست عشرة سنة لاسواها).

بعد نجاح الفتوحات العربية، واستقرارهم في الديار المفتوحة، وانتهاء الحروب الأهلية بين العرب المسلمين، وانتقال الحكم الى أسرة بنى امية، أولاد ابي سفيان (عدو الرسول اللدود)، لم ير هؤلاء الامويون ان من الصواب تطبيق المساواة بين الفاتحين وبين المغلوبين (أهل تلك الديار)، وكانوا يعتبرون الدعوة الى المساواة تنازلا منهم، وخسارة لهم. فانفرادهم بالسلطة فيه المزايا والامتيازات، وكان تعصب هؤلاء الأمويين الشديد لعنصرهم العربي، او لجزء منه، أمرا معروفا وحائلا للموالي، وكانت مطالبة هؤلاء بالمساواة تدفع الامويين الى البطش والتنكيل بهم. وحينما نطق لسان أحد شعرائهم (وقرر الا يسكت) وقرض شعرا بالعربية، استحق غضب الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك بن مروان. اذ دخل هذا الشاعر 'اسماعيل بن يسار' ذات يوم، على الخليفة وهو جالس على بركة قصره في رصافة الشام، فانشد يفخر بالعجم، والخليفة يظن انه يلقي قصيدا في مدحه:

يا ربع رامة بالعلياء من ريم
هل ترجعن انا ما حييت سليمى

الى أن يقول:

أصلي كريم ومجدي لايقاس به
ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام نوي حسب
من كل قوم بتاج الملك معموم
من مثل كسرى وشابور الجنود معا
والهرمزان لفخر او لتعظيم

فغضب هشام وخرج من طوره وشتم الشاعر، وقال: أعلي تفخر أيها العلج؟ وتمدح نفسك و(علوج!) قومك؟ ثم أمر بأن يغطوه في البركة التي أمامه.

كما جلب شعراء فرس آخرون غضب الحكام، فها هوذا ابو المهيار الديلمي الذي تغنى بأمجاد شعبه في قصيدة سميت "أعجبت بي" غناها المطرب والموسيقار المصري الشهير محمد عبدالوهاب في مناسبة تخص العلاقات الدبلوماسية بين مصر وايران في عهد شاه ايران والملك فاروق، ولعلاقة المصاهرة بين العرشين.

أعجبت بي بين نادي قومها
ذات حسن فمضت تسأل بي
سرها ما علمت من خلقي
فأرادت علمها ما حسبي
لاتخالي نسبا يخفضني
أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى
ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاما تهموا
وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على ايوانه
أين في الناس أب مثل أبي
قد قبست المجد عن خير أب
وقبست الدين عن خيت نبي
فـضممت الفخر من أطرافه
سـؤدد الفرس ودين العربي

والواقع أننا اذا جمعنا قصائد الشعراء الفرس التي تغنوا فيها بأمجادهم، وتفاخروا بأجدادهم، لظهرت في مجلدات، وقد ظهرت في مجلدات فعلا، وأغاظت تلك القصائد صدور العنصريين من العرب، ومن ثم يثبتون عليهم "تهمة" الشعوبية ومقت العرب، او تهمة الزندقة والخروج عن الدين.

لقد عانى الفرس -خاصة- ثم عموم الموالي، معاناة شديدة، جراء النظرة الدونية التي تسئ الى مادعا اليه الاسلام. وصار من يطالب بالمساواة خارجا عن (قانون) العنصريين، رغم انه لايدعو سوى الى تطبيق الآيه الجميلة: "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم" (سورة الحجرات، الآية ١٣). وكان الأمويون ونظراؤهم أرادوا أن تكون الآية: "ان أكرمكم عند الله أعرقكم عروبة"، وليس "أتقاكم". ولهذا أطلق على دعاة المساواة أهل التسوية، وكان الخوارج أبرز هؤلاء الدعاة.

واذا كانت دولة عشيرة أمية استطاعت كبت الموالي وارهاقهم بأعمال السخرة ودفع الضرائب، فأن هذا الكبت وحرمانهم من حقوق المساواة، وماسببه لهم ذلك من آلام وامتعاض، قد ولد لديهم انفجارا، واستمرت حالة الغضب في عهد الدولة التالية، ولذا كان من المتوقع أن ينضموا او يقودوا حركات المعارضة، تعبيرا عن ذواتهم، ودفاعا عن حقوقهم ولوضع حد لاسكاتهم واخماد أصواتهم. فلا عجب أن كان الفرس وقودا لثورات الطامحين في نيل السلطة. ولهذا كانت ثورة المختار -على سبيل المثال التي طالبت بحق العلويين- آل البيت - تستند بشكل جوهري على أذرع الموالي. فهذا القائد العربي -اي المختار- لكى يضمن نجاح ثورته، منح الموالي في العراق كثيرا من الامتيازات التي حرموا منها، وجعلهم يشعرون وكأنهم صاروا متساوين مع العرب. وكانت فكرة المساواة تستفز الحكام. فها هو 'شبث بن ربعي' يعبر عن سخطه في حديثه الموجه الى المختار قائلا: "عمدت الى موالينا، وهم- فيء (الفئ= الغنيمة)(!) أفاءه الله علينا ومع بلادهم، جميعا.. وقد جعلتهم شركاء لنا في فيئنا" (الطبري: ٥١٨/٤).

فمناداة المختار بمساواة العنصرين -العربي وغير العربي- لدى توزيع الفيء (الغنيمة) حفزت الارستقراطية العربية (هامش: المستفيدون من أرض وثروات أوطان الآخرين بعد الفتوحات، وحسب توزيعها على الحكام (قادة وجنود الفتح)، في الكوفة، ودفعتهم الى قتال المختار. اذ معناه في نظرهم أن

يتساوى بهم الموالي، وان يصيبوا من الفيء ما يرفع مستواهم المادي، ومن ثم المعنوي، وهذا ما لم يقبله او يتقبله العرب، اذ فيه خطر على نفوذهم. ونورد نصا صريحا أورده الطبري. فقد خطب الوالي الذي عينه عبدالله ابن الصحابي الزبير بن العوام في جمع من أتباعه يحثهم على قتال المختار قائلا: ايها الناس، ان من أعجب العجب عجزكم عن عصبة قليل عددها، (!) خبيث دينها(!) (رغم أنهم دخلو الاسلام) اخرجوا اليهم، امنعوا منهم حريمكم (وهل حسب حساب حريم المغلوبين على أمرهم) وقاتلوهم عن مصركم (دياركم!) وامنعوا منهم فيئكم، والا فوالله يشاركنكم في فيئكم من لاحق له فيه(!). والله لقد بلغني ان فيهم خمسمائة رجل، عليهم أمير منهم، وانما ذهاب (ذهاب بمعنى: خسارة) عزكم وسلطانكم، وتغير دينكم(!) حين يكثرون (الطبري: ٥٠٤/٤). ان هذا النص يؤكد ان لاخلاف او فرق بين ارستقراطية أولاد الزبير او أحفاد أبو سفيان او أحفاد العباس. والواقع ان والي الخليفة عبدالله ابن الصحابي الزبير بن العوام، وهو من العشرة المبشرة بالجنة، كان صادقا مع جماعته. فالعلوج - (وهو الوصف الذي أطلقه الغزاة على أهل البلاد المفتوحة، حتى بعد دخولهم الاسلام)، فالعجم هؤلاء لايعقل أن يساووا في الحقوق مع العرب المسلمين. ولهذا فان حاكم الكوفة الزبيري، استعان بخصمه الاموي (المهلب بن أبي صفرة) بعد ان أثار نخوته العربية ضد الموالي. وكانوا يقولون ان نساؤنا وأبناونا وحرمنا، غلبنا عليهم عبيدنا(!) موالينا (الطبري: ٥٥٩/٤) وكان لهذا القول المأثور أثره الطيب في نفوس الأمويين.

خرج المهلب بجيشه، وانضم الى جيش مصعب ابن الزبير في البصرة، واستطاعت هذه الجيوش العربية -في نهاية الأمر- أن تقضي على ثورة موالي العراق بقيادة المختار. وحتى هذا الأخير -المختار- وهو من قبيلة ثقيف العربية في الطائف، لم تكن نظرته الى الموالي لتختلف عن نظرة بقية القادة العرب، لو تسنى له احراز النصر، بجهود الموالي على نظرائه القادة الآخرين. ولما تم تعيين الحجاج بن يوسف الثقفي -اشهر رجالات وولاة الدولة الأموية، وأكثرهم سفكا للدماء، واليا على العراق، ظل يعاني من أهله الموالي، فأذاقهم الويل والثبور. لذا فرق جماعتهم حتى لايجتمعوا ولا يتعامدوا (لا يقووا). وكان لسان حاله معهم يقول: "أنتم علاج وعجم، وقراكم اولى بكم". فاعادهم الى قراهم، ويفلحوا الأرض ويصبحوا مصدر دفع الضرائب الشرعية واللاشرعية، ويدروا الدينار والدرهم للحكام المنتصرين.

تقوضت دولة بني أمية بعد أن حكموا بفرعيها (فرع بني سفيان وفرع مروان ابن الحكم، طريد الرسول من مدينته، بعد أن دام حكمها مدة لاتزيد عن تسعة عقود (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٤٩م)، وحلت محلها في حكم المسلمين اسرة عربية ثانية هي الاسرة العباسية، نسبة الى العباس عم النبي (صلعم) وقد اضطلعت شخصيات فارسية كبيرة باقامة الدولة، بل انها أقيمت على أكتافها، كما أسلفنا ذلك، فنجد أن أبا سلمة الخلال آوى أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور (أول خليفتين عباسيين) عندما هربا الى الكوفة بعد مقتل أخيهما ابراهيم الامام على يد مروان بن محمد المعروف بـ'مروان الحمار'، آخر الخلفاء الامويين، كما انه -اي الخلال- قام بأمر الدعوة لآل عباس. ثم عدل دعوته -حسب الروايات- الى أبناء علي بن ابي طالب وراسل ثلاثة من كبار أعيانهم، ورشحهم للخلافة، الا أن أبناء علي لم يتحمسوا للفكرة، وتلقوا الدعوة بفتور، ولم يحملوا الأمر محمل الجد. ولما نجحت الدعوة وبويع أبو العباس السفاح بالخلافة، بلغه ماكان من "تشيع" ابي مسلم لآل علي، فقتله. وكان قتله اساءة بالغة الى العنصر الفارسي، لكن السفاح استطاع أن يتدارك الموقف ويعالجه بحكمة، متفقا مع ابي مسلم الخراساني.

كان هذا الرجل من أعظم الشخصيات الفارسية التي اعتمدت عليها الدولة الجديدة. وكان ينظم الدعوة سرا، حتى اضطرب أمر بني أمية في عهد آخر ملوكهم فأظهر الدعوة وأعلنها. جمع أبو مسلم جمعا غفيرا من أهل خراسان، ووجههم لقتال الوالي الاموي نصر بن سيار والحاق الهزيمة بقواته، ثم اتجه الى العراق حيث السفاح يقيم فيه، فبايعه بالخلافة سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، فاطيحت بدولة وأقيمت أخرى على أنقاضها.

لقد حسب الخليفة العباسي الثاني المنصور، أخو السفاح، ألف حساب لبسالة ونفوذ القائد الخراساني، واستطاع ان يقتله بمكيدة وبأسلوب بعيد عن الرجولة، الا أن السياسة ومصلحة الدولة الفتية لم تعبأ بمفاهيم الرجولة وحساب التاريخ، فقد يتحول أمر غير منطقي الى منطقي، والى أمر

واقع، أو بالعكس، وحسب اختلاف مصالح الاطراف ورؤى أهل التاريخ.

أخذ العنصر الفارسي يقوى، ويمثل الدور الأساسي للبرامكة ذروة مابلغته مكانة الفرس في دولة بني العباس في تشييد بنيان الدولة الاداري والمالي منذ بداية التشييد. وكان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي قد أرضعته الخيزران ام الخليفة هارون الرشيد، كما أرضعت أم الفضل الرشيد الذي صار خامس خليفة عباسي. وهذا يعني ان ثمة اختلاطا أسريا بين الارستقراطية الايرانية والعباسية، حتى ان جعفر ابن يحيى تزوج 'العباسة' ابنة الخليفة وأخت الرشيد. الا ان نفوذ البرامكة المنقطع النظير لم يستمر، اذ نكل بهم الرشيد، وتم القضاء عليهم في حركة سميت بنكبة البرامكة (انظر كتاب د. هولو جودت، البرامكة سلبياتهم وايجابياتهم، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٠).

وكانت هذه النكبة بمثابة تصفية حساب بين العنصرين، وبداية لعهد بدأت الدولة تضعف فيه وتتداعى، كما تركت -النكبة- فراغا كبيرا في معظم ادارات الدولة. وفي هذا الصدد ذكر الجهشاري: لما انقضى دور البرامكة اختلت أمور الدولة (كتاب الوزراء والكتاب، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٥٨). كما ان الرشيد ندم على ماصدر منه بحق البرامكة. بل أنه بكى لهم حتى جرت دموعه، حسب قول أبي الفرج الأصفهاني (الأغاني ١٥٣/١٧). وان الرشيد حين بلغه نبأ وفاة يحيى بن خالد البرمكي وهو في سجنه، قال قوله البليغ: مات والله يحيى، ومات الجود والكرم، والله لو كان حيا لفرجت عنه. وقال: اضربوا عنق - ياسر السياف، فاني لا أقدر أن أنظر الى قاتل جعفر. (المسعودي: مروج الذهب: ١٢٥/٤). وكأنه -اي الرشيد- لم يكن القاتل الحقيقي. وكانت هذه النكبة حلقة في سلسلة من تصفيات لرجالات الفرس الأفناذ، صارت تنفذ تطبيقا لسنة قوامها: ان سوء الظن من حسن الفطن. ولاننسى وصية ابراهيم الامام - أخي السفاح والمنصور- لقواده عن القيام بقتل قادة على الشبهة.

بعد الرشيد اشتد الصراع بين العنصرين -لأسباب عديدة- وانعكس ذلك على العلاقة بين ولديه غير الشقيقين، الأمين والمأمون، وكان النصر فيه حليف الأخير الذي كانت أمه، وزوجته الأثيرة فارسيتين. وقتل الأمين (ابن زبيدة) سنة ١٩٨هـ/٨١٣م. وكان انتصار المأمون لصالح العنصر الفارسي. وقد كافأ المأمون قائد جيشه في الصراع طاهر بن الحسين مكافأة سخية فولاه أمر المشرق. وكانت هذه الولاية بداية قيام الامارة الطاهرية التي أسسها، وهذه الامارة هي أول الكيانات الفارسية في الاسلام. وبقيامها بدأ العنصر الفارسي ينفصل عن المحيط العربي ليستقر في بيئته الأصلية مستقلا في واقع الأمر عن الدولة العباسية، كما كان بمثابة نهاية فترة الصمت التي دامت لنحو قرنين من عمر الزمن، كما حدد الدكتور عبدالحسين زرينكوب في كتابه "دو قرن سكوت،" وقد يأتي يوم ينتهي فيه صمت الكرد -كلهم- وقد دام طويلا.

ولعل من المفيد أن نختتم كلامنا بالقول: ان الفرس كانت لهم أياد بيضاء امتدت الى كافة ميادين الحضارة الاسلامية، فبرز دورهم في دراسة العلوم كافة، سواء علوم الدين واللغة العربية وآدابها، اضافة الى دورهم في دراسة العلوم الطبيعية والرياضية، وكذلك في علوم التاريخ والجغرافيا وآداب السياسة وادارة الدولة.. الخ. ففي علوم الدين كانت صدارتها لهم. فقد ذكر ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد" نقلا عن ابن أبي ليلى يقول: سألني عيسى بن موسى وكان شديد العصبية للعرب: من كان فقيه البصرة؟ أجبت: الحسن بن الحسن ومحمد بن سيرين. فسأل: فما هما؟ قلت موليان.

قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن ابي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبر وسليمان بن يسار. قال فما هؤلاء؟ قلت: موالي. ثم سأل فمن هم فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر، ونافع بن نجيح: قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي. فتغير لونه.

ثم سأل: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة وابن ابي الزناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فأربد وجهه. ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه. ووهب بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي. فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا. ثم قال: فمن كان فقيه خراسان. قلت: عطاء بن عبدالله الخراساني. قال: فما كان هو؟ قلت: مولى. فازداد وجهه تربدا (عبوسا) واسود اسودادا، حتى خفته. ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول. قال: فما كان محكول هذا؟ قلت: مولى. فازداد تغيظا وضيقا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فما كان؟ قلت: مولى. فتنفس الصعداء. ثم سأل: فمن كان فقيه الكوفة؟ فوالله لولا خوفي منه لقلت: الحكم بن عيينة، وعمار بن ابي السلمان، ولكن رأيت فيه

الشر، فقلت: ابراهيم والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان.
فصاح: الله اكبر، وسكن جأشه! (العقد الفريد: طبعة القاهرة، ١٩٤٢، ٤١٥/٣)

---